د. ابراهيم ابو لغد

الأستعمار

وازمة التطور الحضاري في الوطن العربي

١ ـ ان عنوان هذه الورقة الذي اختارته اللجنة التحضيرية يدل بحد ذاته على اهم اثار الاستعمار الغربي في الوطن العربي ،الا وهو قبول وتقبل نظريات تاريخية واجتماعية نشات في اوروبافي ظروفها الخاصة ومن ثم تم انتقالها الى شعوب العالم الثالث . فعندما نتكلم عن ازمة تطور في الحضارة ، نحن نسلم بان الحضارة « تسير من نقطة معينة ثم تنشا وترتقي الى شكل اخر . وهذا النمط من التفكير انتقل الى العلوم الاجتماعية والانسانية من بدايته في العلوم الطبيعية والحيوانية ، فبعد ان كانت نظرية النشوء والارتقاء الداروينية محاولة جادة لتفسير التغييرات الاساسية في النبات والحيوان ، انتقلت هذه النظرية عن طريق سبنسر وغيره من علماء الغرب الى تفسير التغييرات الاجتماعية والانسانية .

ويمكن للعلماء ان يتدارسوا هذه النظرية ويناقشوها نظريا الا انه معلوما لدى كثير من الناقدين الاجتماعيين في العالم الثالث ، وحتى في اوروبا وامريكا ، بأن المجتمعات الغربية ، ومفكريها الذين ساهموا مساهمة فعالة في ارساء دعائم الاستعمار الغربي استخدموا وما زالوا يستندون الى هذه النظرية الداروينية الاجتماعية في محاولاتهم المتكررة ، على الصعيد العلمي والسياسي ، ان يميزوا بين التقدم في الغرب والتخلف في العالم الثالث . وما التعبيرات المختلفة التي يستخدمها علماء الغرب وغيرهم في تصنيف المجتمعات المعاصرة، الا محاولات مستترة لتاكيد صحة هذه النظرية الداروينية في العلوم الاجتماعية والانسانية . وما علينا في هذا المجال الا ان نشير الى بعض المصطلحات التي يجري استخدامها يوميا في الصحافة والكتب والجامعات الغربية والمتاثرة بها . فمن منا لا يعلم حقيقة ما يقصد به « بالتخلف « وبالتحدث » « وبالتجديد » و«بالتنمية» «وبالتطوير» « وبالعلمانية » « وبالعقلانية » او « بالعلمية » ؟ اليس المقصود بكلهذه الصفات التي تتميز بها مجتمعات معينة ان نستنتج بان المجتمعات التي لا تجري عليها هذه الصفات تقليدية « رجعية » غير متطورة تتغلب عليها التفسيرات الدينية والغيبية ، وهذه بالتالي لا علميةولا عقلانية . واليس المقصود بذلك ان نستنتج بان المجتمعات الغربيةالتي تتحلى بالصفات الاولى ارقى واكثر تطورا من المجمعات الاخرى ، عربية كانت او افرو ـ اسيوية . واليس المقصود بذلك ان يحاول مسيرو هذه المجتمعات ان يتقبلوا هذه المقاييس وان يتبعوا سياسات وبرامج متكاملة تكفل تطوير مجتمعاتهم بحيث تساير النمط الحديث ! اذا سلمنا بصحة هذه النظرية جاز لنا ان نتصور ان هناك ازمة « تطور » حضاري في العالم العربي ، وان الاستعمار ساهم مساهمة فعالة في احداث هذه الازمة . الا انني اختلف في تصوري لما يجري في الوطن العربي على الصعيد الحضاري وساحاول في الصفحات التالية ان اوضح مفهومي لازمة الحضارة في الوطن العربي .

٢ ـ الوجود الاستعماري في الوطن العربي

اتخذ الوجود الاستعماريفي الوطن العربي اشكالا مختلفة لا بد من تحديدها :

(١) الاستعمار غير المباشر الذي تم عن طريق استخدام التهديد بالقوة دون استخدامها ، وعن طريق استخدام قوته الاقتصادية للسيطرة الاقتصادية ولسلب الموارد الطبيعية في الوطن العربي ، ولفتح الاسواق العربية للبضائع الغربية ، ولتقبل اي محاولة لتقوية الاقتصاد القومي والتصنيع ، ولتعطيل التعامل الاقتصادي الطبيعي بين البلاد العربية والاسيوية والافريقية واخيرا للتضييق على الحضارة العربية التي استندت الى التعاليم الاسلامية ، وذلك عن طريق التبشير والارساليات العربية التي سترت احيانا بغطاء تربوي او صحي ونستطيع ان نقول بان محاولات خنق مصر في اوائل القرن التاسع عشر ، والتضييق على دول المغرب والخليج، وبداية التدخل الغربيفي سوريا ولبنان وفلسطين دون الاحتلال العسكري توضح التدخل الاستعماري في المنطقة وهذا ما اعنيه بالاستعمار الغير مباشر . وكان لهذا النوع من الوجود الاستعماري اثار عديدة سأتكلم عنها فيما بعد .

(٢) الاستعمار المباشر والذي تم باحتلال المنطقة عسكريا وبالتالي تسييرها سياسيا وثقافيا واقتصاديا بحيث تخدم اهداف المستعمر وكان لهذا الوجود الاستعماري اثارا اخرى تختلف عن سابقتها .

(٣) الاستعمار الاستيطاني والذي تم باحتلال اجزاء من الوطن العربي عسكريا وبالتالي القبض على زمام الامور بها ، واحلال اجناس اوروبية ومختلفة بدل المواطنين كما كان الحال في الجزائر والى حد ما في ليبيا وفلسطين ، وكان لهذا الوجود الاستعماري اثار اكثر خطورة على الحضارة العربية ومستقبلها من سابقيها .

٣ ـ روج المؤرخون الغربيون ومن جاراهم من مؤرخي العرب الذين تتلمذوا عليهم فكرة خطيرة جدا تتلخص بان العالم العربي قبل الوجود الغربي او قبل التحدي الغربي ، كان في سبات عميق . حضاريا تجمد في القرون الوسطى ، وان اوضاعه السياسية والاجتماعية كانت على درجة عالية من الاستقرار نتيجة لتسلط سياسي واجتماعي لفئات معينة ، وانه بدأ يتحرك ويتساءل ويحاول التغيير اثر صدمة القوة الغربية . ورغم ان هذه الفكرة ما زالت مسيطرة على معظم ما يكتب عن العالم العربي ،الا ان البحوث والدراسات القليلة الجديدة التي رفضت الاسس الفكرية للتصور التاريخي الاستشراقي تدل دلالة واضحة على ان حركات التغيير في العالم العربي ، ومحاولات استئناف النشاط الفكري والسياسي سبقت الوجود الاستعماري في المنطقة ، وكان للوجود الاستعماري اثر سلبي على هذه الحركات الاصيلة بحيث انه شوهها وحول وجهتها واهدافها وسلبها اصالتها . والجدير بالاشارة اليه بانه اصبح مسلما بها ، بان الفترة التي رافقت الوجود الاستعماري غير المباشر اطلق عليها العرب فترة النهضة ، وان كان لهذه التسمية دلالة، فما هي الا التسليم الفكري للتصور العربي لما كان عليه العرب ولما حاولت الفئات المطالبة بالتغيير ان تصل اليه . وما علينا في هذا المجال الا ان نشير الى تلك الحركات التي سبقت هذا الوجود الاستعماري والتي كانت محاولات جادة لممارسة النشاط الحضاري العربي او لاحداث تغييراتسياسية او اجتماعية من شانها انتحقق

قدرا اكبر من العدل والحرية والتكامل الاجتماعي. فحركة الوهابيين في نجد ومنطقة الخليج ، الحركات المتكررة لاحداث تعديلات في نظرية وبنيات المعرفة في مصر عن طريق تعديل وتوسيع برامج الازهر ، وحركة ظاهر العمر في فلسطين ،والشهابيين في لبنان ، ومحاولات لحم المجتمع في الجزائر وتونس بوضع حد للفصل الكامل بين الحاكم الشركسي ـ التركي والمواطن العربي ، كلها جاءت قبل الوجود الاستعماري والتحدي الغربي المباشر . والجدير بالنظر ان هذه الحركات جاءت نتيجة لاحساس داخلي بضرورة تعديلات في لبنات المجتمع وبضرورة استمرار حيوية الحضارة العربية استنادا الى اصولها الفكرية الاسلامية . وعلينا ان نلاحظ ايضا ان التدخل الاستعماري جاء بعد ان اوشكت هذه الحركات على النجاح . فاحتلال الجزائر مثلا تم بعد فترة انجازات اجتماعية ضخمة كان من شانها ، لو لم يتدخل الاستعمار ، ان تعيدللجزائر حيويته الفكرية والسياسية وارتباطاته بالمنطقة العربية . ونستطيع ان نضيف الى هذا بان التحول الاستعماري غير المباشر الى احتلال عسكري مباشر جاء في الكثير من الحالات ، وربما كان رد فعل طبيعيا للاستعمار لانجازات اجتماعية وسياسية وفكرية كان من شانها ان تقوي شوكة هذه المجتمعات . ونستطيع في هذا المجال ان نشير الى ان الاحتلال الانكليزي لمصر والاحتلال الفرنسي لتونس جاء بعد انانجحت الفئات الوطنية في مصر وتونس في وضع اسس طيبة للحكم الوطني ، اذ ان الحركات الوطنية والفكرية في مصر وتونس عبر القرن التاسععشر صارعت الفئات الحاكمة للحصول على مزيد من حرية العمل والفكر ، ولتحديد الحكم المطلق للولاة فيها ، ووضع اسس دستورية وتشريعية كفيلة بالمساهمة الشعبية في الحكم . وكذلك الحال في سوريا ولبنان اذ ان الحركة القومية العربية التي صارعت السلطة التركية وصلت الى مرحلة تسمح لها بالسيطرة ابان الحرب العالمية الاولى ، وبدل ان تستقل هذه البلدان عن الامبراطورية العثمانية ، كان لها ان تخضع للاستعمار البريطاني والفرنسي وان تصارعهما للحصول على الاستقلال الذي هدفت اليه سابقا.

٤ ـ ان الحركات التي هدفت الى التغيير الاجتماعي اوالحضاري او السياسي في الوطن العربي قبل التحدي الغربي استلهمت التراث العربي والاصول العربية في تحديد وجهتها ، واعتقدت بان هذه الاصول كفيلة باحداث التغيير المناسب بحيث تعيد للمجتمع العربي حيويته الفكرية والسياسية والاجتماعية . الا ان الوجودالاستعماري غير المباشر اضاف الى هذه الاصول والاسس ، اسسا اخرى غربية . وكان للقوة الاستعمارية اثرها الواضح في احداث تغير جوهري في تصور الطريق الى المستقبل ، فما كان للفئات الحاكمة ، وللمفكرين الذين خدموا هذه الفئات ، الا ان يتقبلوا بعض التصورات الغربية كاساس للتطور . فجاءت التنظيمات الجديدة مقتبسة من الغرببحيث تكفل في تصور الحاكم في الوطن العربي ، تجديد وتقوية المجتمع فجاء الجيش والمصنع وملكية الارض ، والتنظيم الاقتصادي وانظمة التعليم ، والقوانين الجديدة كلها مستوردة من نظام غربي معين. وكان لهذه التنظيمات اثرها الكبير على الجوار الفكري الذي ميز العالم العربي منذ القرن التاسع عشر . فبدل ان يكون هناك نظام تربوي واحدللمجتمع، واجه المواطن نظامين مختلفين اختلافا كليا: نظام يستند في اسسه المعرفية والتنظيمية الى أصله العربي ، ونظام تربوي يستند الى اصله الاسلامي العربي . وقد عرف المواطن بانه ان اراد ان يصل الى القمة الاجتماعية ـ الاقتصادية عليه ان يتقبلالنظام الجديد . وكان لهذا التطور اثر خطير على المستقبل العربي ، اذ انه كرس التصنيف الاجتماعي والسياسي في المجتمع بحيث سمح للقلة التي تثقفت غربيا ان تسيطر في النهاية على الوطن العربي، وساهمت بايجاد نظامين متوازيين في المجتمع لينشيء اجيالا موازية لا يربطهما ببعض الا اضعف العلاقات . ونحن نتعلم جميعا كيف نظرت القلة المستغربة الى الاكثرية الساحقة في المجتمع العربي .

الا ان المهم في كل هذا ان ازمة الحضارة في الوطن نشات ابان هذه التغييرات الجوهرية في بنيات المجتمع العربي وفي منطلقاته. وعلينا ان نشير هنا الى ان الدعوة الحضارية والاجابة الحضارية اثناء هذه الفترة جاءت مناسبة لهذا التمزق الفكري . اذ اننا نلاحظ ان ما اصطلحنا على تسميته « بالمصلحين العرب » انقسموا فيما بينهم الى قسمين رئيسيين : نعتقد مثلا ان جمال الدين الافغاني، ومحمد عبده ، وخيرالدين التونسي ومحمود فياضو ، ساهموا مساهمة فعالة في النهضة الحديثة الا انهم فكريا وحضاريا ينتمون الى مدرسة فكرية استمدت جذورها من الحضارة العربيةالاسلامية، وبهذا جاءت دعوتهم استجابة اصيلة لمجمل التساؤلات والقلق الفكري الذي ميز المجتمعات في تلك الازمنة . وبان واحد نعتقد بان بطرس البستاني ، وشبلي الشميل ، واديب اسحق كذلك ساهموا مساهمة فعالة في ارساء اسس العلمانية والعلمية في المجتمع العربي، ونعتبرهم مصلحين كذلك ، الا ان استجابتهم اختلفت كثيرا عن تلك الاستجابات التي تميز بها الافغاني وعبده وغيرهما .. بالرغم من ان هنالك فوارق جوهرية بين الفئتين ، الا انه من المعروف بان حوارا دائما رافق الانتاج الفكري لهذه الفئات ، مما كان له اثر حميد على ديمومة الصلة بين الفئات المثقفة . وبتكثيف الوجود الاستعماري المباشر وتبنيه لتلك الفئات التي قبلت تصوراته وقيمه انقطع الحوار ، وكان لسيطرة المستغربين السياسية والاجتماعية اثر كبير في تسيير المجتمعات العربية دون اعتبار للاصول العربية او الاسلامية فجاءت انظمة التعليم ، والاقتصاد ، والسياسة تؤكد اهميةوحيوية الوجهة الغربية للمجتمع العربي ، وان الامل الوحيد للتقدم العربي يكمن في التغلب على تقليدية المجتمع وعلى قبول المنطلقات الفكرية والاجتماعية الغربية .

ويجدر بنا في هذا المجال ان نشير الى محاولتين لاستئناف الحوار بين الفئات المختلف دون ان يكون لاي منهما اثر ايجابي يذكر : محاولة علي عبدالرازق في كتابه « الاسلام واصول الحكم » والذي حاول عبره ان يؤكد بعض الاسس الاسلامية للحكم السياسي العصري باشكاله المختلفة ، وبغض النظر عن صحة اقواله اوخطاها، الا اننا نستطيع ان نعتبرها محاولة جادة في المحافظة على اصول المجتمع العربي الاسلامي ، مع تعديلات جوهرية في ممارسة الحكم السياسي . اما المحاولة الثانية فهي محاولة الدكتور طه حسين في « مستقبل الثقافة في مصر »، حيث تبني فكرة ارتباط مصر بالحضارة الاوسطية ، حيث اكد بان مستقبل مصر الحضاري يرتبط الى حد بعيد بالتيارات الفكرية والحضارية المنتشرة بالدول الاوسطية ، وهو بهذا عنى حقا ارتباط مصر الفكري باوروبا ،وان لا امل لمصر ـ او لاية دولة اخرى في المنطقة ـ ان تنهض وتتطور دون ارتباطها بالفكر والحضارة الاوروبية .

ان هذه المحاولات رغم جرأتها الفكرية لم تسمح للمفكرين انذاك ان يدخلوا في حوار علمي واضح حول المستقبل الحضاري للوطن العربي . وكل ما جرى حقيقة ان انقسم المجتمع الى فريقين : فريق اكد الصلة العربية او الاسلامية للمجتمع العربي ، وربما كان هذا الفريق اكثر صيحة من الاخر ، بينما استمر الفريق الثاني رغم هزيمته امام الجماهير بتكريس التنظيمات التربوية والاجتماعية والسياسية بحيث تؤدي في النهاية الى ارتباط العرب الحضاري بالغرب . ولا بدلنا هنا من ان نشير الى حركة ثالثة تبلورت حول افكار معينة ،ثم تطورت الى حركة سياسية ، وهي حركة القومية السورية التي نادتبالوجود السوري والشخصية السورية الفريدة، ورغم انها اعترفت بوجود اللغة العربية في سوريا الكبرى وبارتباط سوريا بالتاريخ العربي ، الا انها اكدت الميزات الخاصة السورية للشعب السوري . ونستطيع ان نقول بان الفكرة السورية في منطقة الهلال الخصيب كانت محاولة جادة للاجابة على التساؤلات الحضارية

التي انتشرت في هذه المنطقة . وكما لم يكن لعلي عبدالرازق ولطه حسين ان ينجحا في مصر ، لم يتسن للحركة السورية ان تنجح في منطقة الهلال الخصيب .

٥ـ ربما يعود فشل هذه الحركات الفكرية الى طبيعة الاوضاع السياسية والاجتماعية التي سادت المنطقة العربية في القرن العشرين . اذ ان الوطن العربي فقد استقلاله وتمزق شمله ، ولم يعد الحوار المطلوب حوارا عربيا داخليا بين فئات تتصارع لرسم المستقبل العربي ، بل اصبح صراعا محليا ـ غربيا على الصعيد السياسي والعسكري . فحركات المقاومة السياسية العسكرية نشأت للقضاء على السيطرة العسكرية السياسية للمستعمر الغربي .ورغم حرص حركات المقاومة على الاستقلال السياسي للاجزاء المختلفة للوطن العربي ، فانها قبلت بمبدأين خطيرين : الاول انها اعترفت بمقاييس الاستعمار ومعاييره الحضارية ، وبذلك قبلت فكرة التخلف والتقدم، وادعت بانها اقدر من الاستعمار على تطوير المجتمع العربي بحيث يصبح اكثر حداثة وتقدما . اما المبدأ الثاني ، وقد قبلته تدريجيا، فهو مبدأ التجزئة العربية وقبولها فكرة الدول المستقلة . وهنا نلفت النظر الى الفرق الجوهري بين اي حركة هدفت الى التغيير قبل الاستعمار وبعده . اذ ان الحركات السابقة انطلقت من منطلقات عربية ـ اسلامية ، وهدفت الى تغيير شامل في الوطن العربي ككل ، بينما نجد ان الحركات الوطنية التي رافقت وحلت محل الاستعمار انطلقت من منطلقات عربية ـ غربية، وهدفت اصلا الى تحرير ذلك الجزء من الوطن العربي الذي نشأت فيه .ولا نود ان نقول بانها رفضت فكرة الوحدة العربية او وحدة الوجود العربي ، الا انها مع ذلك مارست هذا الرفض على الصعيد العملي . ونستثني من قولنا هذا الحركات القومية العربية الكبيرة كالبعث والناصرية او القوميين العرب مثلا. وتعود اهمية هذا الاختلاف بين الحركات القديمة والجديدة حضاريا الى حقيقة ملموسة بانعدام الحوار الحضاري على المستوى العربي ككل . اذ ان ما نلمسه اليوم وما نعرفه هو ان الثقافة العربية في المغرب مثلا مجهولة لدى الدول المشرقية ، وان التساؤلات الكثيرة الدائرة في دمشق يجهلها المواطن او المثقف التونسي ، وان الانتقادات الحضارية في الجزائر تكاد تكون مجهولة في الجزيرة العربية . وتكاد تكون هذه الحقيقة عكس ما كان يجري في القرن التاسع عشر مثلا . اذ ان حركة التغيير في تونس كان لها صدى في لبنان، وكان من الطبيعي للشيخ محمد عبده ان يقف في تونس ليتحدث الى النخبة الاسلامية ويتعرف على حقيقة ما تنشده هذه النخبة. والتجزئة السياسية اذن والتي احدثها الاستعمار ، قبلتها ومارستها الحركات الوطنية التي استلمت الحكم في هذه الدول . وبدل ان تحاول العودة الى ربط الامة العربية ولاستئناف الحوار الحضاري بين فئاتها المختلفة ، نجد ان الحكم الوطني بالغ في التشديد على استقلالية الوطن الصغير وبالسيطرة على وسائل الثقافة والاعلام في هذا الوطن ، مما ساعد على منع الحوار الثقافي والحضاري الذي يجب ان يجري على المستوى القومي .

ورغم ان التجزئة السياسية للوطن العربي ، والتي عجزت جامعة الدول العربية ان تتغلب على اسوأ اثارها ، حرمت هذا الوطن من الافادة من العقل العربي ككل ، الا ان الحكم السياسي المحلي ربما يشكل خطرا اكبر على مستقبل الحوار الحضاري في هذا الوطن . اذ ان ما حدث نتيجة للوجود الاستعماري السياسي والفكري وتغلب التفكير الغربي هو ان الاوطان العربية قبلت باشكال من السيطرة السياسية وبنظريات الحكم المستمدة من الفكر الغربي الليبرالي والفاشستي والماركسي ، ولم يعد للفكر السياسي العربي الاصلي اي انعكاس في الحكم في العالم العربي الا في المناطق التي تنعتها التقليدية والمشيخية . فان كان هنالك حوار معاصر حول مستقبل الحاكم والمواطن في هذا الوطن او ذاك فانني لا أبالغ ان قلت بأن هذا الحوار يقتصر اولا على تلك الفئات التي تثقفت غربيا و تلك التنظيمات السياسية التي استلهمت التنظيمات السياسية الغربية نموذجا لها . اما الممارسة الحقيقية للسياسة على الصعيد الشعبي في القرى والجبال والاماكن الشعبية فلم تعد لها قيمة في الفكر او الممارسة السياسية . ورغم ان اهتمامنا في هذه الدراسة لا يتركز على السياسة ، الا انني اشير الى هذه الفجوة لاوضح نقطة اساسية هامة ، وهي ان الفكر يرتبط ببيئته ويستمد اصوله من ممارسات الشعب وتاريخه ، وممارسات الشعب اين كان لا ننعكس في الفكر السياسي العربي المعاصر او ما ينشده هذا الفكر. ويعود هذا الفصل الى ان المفكر العربي الذي يفكر دوما لصالح «الشعب» حقيقة يفكر وينظر وهو يعتقد انه يحاور المفكر الغربي . فعندما يقبل الديمقراطية كاساس للحكم او الشيوعية او اي مذهب اخر، يقبل هذه كما وردت اليه من الغرب وليحصل على قبول ورضى الغرب بآن واحد .ورغم ان هناك محاولات جادة احيانا للربط بين الفكر العربي المستورد والاصول العربية كنعت الاشتراكية باشتراكية عربية ، فان الواقع ان المفكر العربي لم يعد الى التاريخ العربي ليدرس ويوضح الاسس الاشتراكية الاصيلة لمجتمع عربي سابق . وكأنه باستخدام شعار معين اثبت الاصول التاريخية للفلسفة العربية المستوردة . واذا اردنا القول بان المجتمع العربي ، أوعلى الاقل فئة منه تمارس الديمقراطية بطبيعتها ، علينا اذن ان ندرس علميا ممارسات هذه الفئة لنظهرها على حقيقتها .واستطيع القول بأنه ان كان للحضارة العربية مستقبل عربي ، فعلى المفكر العربي ان يقوم بمهمتين اساسيتين : المهمة الاولى ان يعيد كتابة التاريخ العربي من منظور عربي ومن بعد عربي ، بحيث يتمكن المواطن العربي اين كان ان يقف على حقيقة تاريخه بحسناته وسيئاته . واما المهمة الثانية فان يدرس الواقع العربي ـ سياسيا واجتماعيا وحضاريا ـ على المستوى القومي والوطني والمحلي ، بحيث تكون مجمل هذه الدراسات منطلقة من منطلقات عربية وتسمح في نهاية الامر الى ان يلهم الواقع الفكر المعاصر . فان تحقق لنا هذا نكون قد تغلبنا على اثرين سلبيين للاستعمار الغربي كما كرسه الحكم الوطني : اعادة الصلة التاريخية للمواطن العربي بين ماضيه وحاضره ، وعلى المستوى القومي والوطني والمحلي ، بحيث تكون مجمل هذه الدراسات التاريخية . وثانيا اعادة الصلة الاجتماعية والسياسية التي تربط بين فئات المجتمع بحيث يستفيد المفكر من ممارسات الشعب ، بدل ان يستلهم ممارسات الغرب في تفكيره وفي تنظيره. وتتضح اهمية هذه النقطة في المثال التالي : يتكلم الكثيرون عن الصراع الطبقي في العالم العربي تاريخيا وافقيا ، الا انني اشك كثيرا في وجود دراسات عربية علمية توضح طبيعة الطبقات الاقتصادية التي تشكل منها المجتمع العربي . فهناك دراسة واحدة عن الصراع الطبقي في مصر ، وهناك دراسة عن الصراع الطبقي في العراق في عهد عبدالكريم قاسم ، ولا نعرف القليل او الكثير عن الطبقات الاقتصادية في تونس والكويت وسوريا والاردن الخ .. فبدل ان يتكلم المفكر العربي عن الصراع الطبيعي في المنطقة يجدر بنا تمهيدا لتوضيح صورة المستقبل العربي ان نتعرف علميا حقيقة الوجود الطبقي الحالي في المجتمع العربي. ويتكلم الكثيرون عن اندثار الفن المعماري العربي ، وتنقصنا الدراسات عن وجوده وامكانية المحافظة عليه مع العلم بأن المهندسين العرب يدرسون العمارة في الغرب او مدارس اتخذت النمط الغربي نموذجا لها . نتكلم عن الفلاح العربي ولا نعرف عدده واختلاف انماط معيشته ، وانتاجه المادي والفني ونتكلم عن ضرورة تحديثه ، دون ان نعرف ما يمكن ان يساهم به في نمو الحضارة العربية . وهكذا .

ولا نغالي ان قلنا بان المستقبل الحضاري في الوطن العربي يعتمد اعتمادا اساسيا على ما يستمده المفكر العربي من حقائق الاوضاع العربية، ومن الانسان العربي في ابداعه وفي قلقه وفي تقليده للغير وفي مشاكله النفسية والاجتماعية لتشكل هذه اسس تصوراته وتنظيره

في محاولاته لتفسير ما يجري في الوطن العربي او في ما يصبو الى تحقيقه .

٦ ـ ما اشرنا اليه سابقا ، ينطبق على اجزاء الوطن العربي ككل، ويمكننا ان نعزو الكثير من المشاكل الحضارية الى الاثار التي تركها الاستعمار المباشر وغير المباشر . ورغم ان كل هذا ينطبق على الاجزاء التي رزحت تحت وطأة الاستعمار الاستيطاني، الا ان هنالك اثارا اخرى لا بد من الاشارة اليها خاصة بالاوطان التي صارعت هذا النوع من الاستيطان اذ ان الاخير لم يهدف فقط الى ما هدف اليه الاستعمار بشكل عام من تغيير وتشويه الحضارة العربية والاستغلال الاقتصادي بل حاول جاهدا ان يستأصل الحضارة العربية بكل مظاهرها من جذورها في هذه الاوطان .فقد حاول الاستعمار الاستيطاني في الجزائر ان يطمس اللغة العربية بكاملها ، وان يستأصل الدين والتراث الاسلامي وان يحول الاكثرية الساحقة من المواطنين الجزائريين الى طبقة كادحة فرنسية اللغة ، دون ان تشارك في السير الحضاري . كما حاول ان يستأصل الفن العربي والفنون الشعبية المختلفة . ورغم ان المحاولة الايطالية في ليبيا كانت أول وطأة منها في الجزائر ، فان المستوطن الايطالي كان يبغي نفس الهدف ، فحاول تدريجيا عرقلة النمو الفكري والتعليمي بحيث يتمكن في نهاية الامر من طمس المعالم العربية الليبية . والمستوطن الصهيوني في فلسطين حاول ، ونجح الى حد بعيد ، ان يغير الوجه الطبيعي لفلسطين فهوّدها ، وهدم اثارها العربية واخذ جادا يضعف النفسية العربية للمواطن العربي الذي اصر على البقاء في فلسطين بعد الاحتلال . فبالاضافة الى ان هذا النوع من الاستعمار حرم المجتمع العربي ككل من مساهمة عناصر فعالة من اعضائه في الحضارة العربية، وحرم هذه الاجزاء من الوطن العربي من معرفة اصولها وتراثها العربي ، فانه ساهم بمرور الزمن بايجاد شكوك في العقل والنفسية العربية في هذه الاماكن . وما نعرفه من دراسات تؤكد بان المواطن الجزائري اثناء فترة الاحتلال ، والمواطن الفلسطيني تحت الحكم الصهيوني تبني أفكار المستعمر ووجهات نظره في طبيعةالارتباطات الانسانية والعلاقات السائدة بين الشعوب . وتدل هذه الدراسات بان المواطن العربي ينشأ في مجتمعات سياسية عنصرية قليل الثقة في حضارته وثقافته ، وبالتالي بمستقبلها ونجده اكثر تهافتا على تبني ثقافة وحضارة الشعب السائد ، ولا نستغرب اذن مساهمته الضعيفة في السير الحضاري العربي . وهذا بالطبع لا ينفي استمرارية الرفض الحضاري للمجتمع العنصري كما يتجلى فيالادب والشعر المقاوم . الا ان هناك مشكلة اخرى ، اشار اليها الاخ عبدالله العروى في كتابه الاخير والمتعلقة باستخدام الصراعالسياسي مع الاستعمار الاستيطاني لتحويل الصراع الحضاري القائم في المنطقة لخدمة الفئات التقليدية . فقد لاحظ الاستاذ العروي بأن الصراع القائم حول مستقبل فلسطين يستخدم كذريعة في بعض المناطق لخنق الصراع الفكري ولتقوية الفئات السلفية التي عارضت الوجود الغربي بكل اشكاله . وان استمر هذا التيار السلوكي ، فمما لا شك فيه ان ما تبقى من حرية فكرية للنقاش حول المستقبل الحضاري سينقرض وسيكون له اسوأ الاثار على الحضارة العربية. اذ ان ما ظهر في بعض البلاد العربية ان السلطات الحاكمة بها تبنت سياسات فكرية وحضارية وتربوية من شانها ان تقوى شوكة الفئات السلفية وتضعف الحركات اللبرالية او الاشتراكية جريا وراء الثقة الشعبية . ويجدر بنا في هذا المجال ان نشير الى بعض ردود الفعل الفكرية للمواجهة العربية الاسرائيلية في حزيران ١٩٦٧ اذ تبين ان هناك تيارين فكريين حاولا ان يفسرا الهزيمة العربية : التيار الراديكالي والذي طرح جملة من التصورات للوضع العربي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري اكدت بان الطريق الوحيد للمواجهة الناجحة تكمن في اختيار راديكالي للمستقبل يتطلب التغيير الشامل وتقويض الاسس والتنظيمات القائمة ويتبنى انماطا ثورية جديدة كاملة . اما التيار الثاني فقد جاء اسلاميا عربيا فسر الهزيمة ببُعد الاوضاع القائمة عن الاصول الاسلاميةالعربية وان المواجهة الناجحة تتم بالعودة والتمسك بهذه الاصول ، والظاهر بأن الدول العربية اختارت بدائل اخرى تتميز بالمزج والخلط بين هذين النقيضين . الا ان الذين يخشون على المستقبل الحضاري العربي يعتقدون بان استمرار التحدي الاستيطانيّ سيؤدي الى مواجهة كاملة بين هذين النقيضين ولربما يؤدي الى سيطرة العناصر الفكرية السلفية على المجتمع مما يؤدي في نهاية الامر الى الافلاس الفكري.

٧ ـ حاولنا في الصفحات السابقة ان نشير الى الخلفية السياسية والفكرية لازمة الحضارة في الوطن العربي . واريد الان ان اشير الى بعض الخطوط العريضة للمحاولة الناجحة لمعالجة هذه الازمة .

اصبح واضحا ان التقبل العربي ـ وبالتالي تقبل العالم الثالث ـ للتكنولوجيا الغربية ادى سابقا الى التسليم بالسيادة الفكرية والحضارية للغرب وان المسيرين لدفة الامور في العالم الثالث حاولوا جاهدين بتبني العديد من الافكار والتنظيمات والمؤسسات الغربية . كذلك اصبح واضحا ان هذا الخلط بين مبادىء عامة وافكار وتنظيمات تتبلور بالمجتمعات الخاصة لا مبرر له . وفيالنهاية فاشل . آن الاوان اذن ان يتدارس مثقفو العالم العربي في الاسس الفكرية والاجتماعية التي يمكنها ان تساهم في سير الحضارة العربية . ورغم ان الحرية الفكرية في الوطن العربي مقيدة بشكل عام ، الا ان المجتمعات العربية التي تتوفر لها هذه الحريات بامكانها ان تساهم مساهمة طيبة في تشجيع النقاش الفكري لكل الامور التي يحسن مناقشتها وتوفير الوسائل المادية والادبية والمعنوية للمفكرين من سائر الاوطان العربية . فلماذا مثلا لا نؤسس اكاديمية عربية للبحث العلمي والتاريخي تكفل لنخبة من علماء العرب بشكل دوري حرية البحث والكتابة والنشر لتساهم هذه النخبة بايجاد فلسفة عربية اصيلة مستمدة من مجمل التراث العربي من شانها ان تحدد طرق النمو العربي ، ولماذا لا نسمح لمثل هؤلاء العلماء ان يعيدوا النظر كاملا في نظم التعليم المعاصرة والمناهج المتبعة بحيث تصبح هذه ملائمة للتحديات العديدة التي يواجهها المجتمع العربي ككل اذ اننا نعلم بان انظمة التعليم في العالم العربي انظمة مستوردة ، وتنظيم المعرفة بها مستورد دون اصالة ومناهجها ضعيفة ، متباينة لا تخدم التراث العربي ولا تخدم المستقبل العربي ، فلماذا لا نواجهها بجراةوكفاءة دون اللجوء الى خبراء نستوردهم من اليونسكو واسلافهم الذين ارسوا نظم التعليم العربي في القرن التاسع عشر ونظموا المعرفة فيهاوهكذا.

لقد نجحنا في استعادة استقلالنا السياسي من المستعمر مع العلم باننا ما زلنا نواجهه بابشع مظاهره في فلسطين ،الا ان آثاره السياسية في تمزيق الوطن العربي الى اجزاء تحرص على استقلالها وبالتالي تمكنها من التفاعل الطبيعي بين اعضائها ، وآثاره الفكرية والحضارية والتي شوهت الكثير من قيمنا والتي نجحت في تحويل الدفة الحضارية للمجتمع العربي ، واثاره الاجتماعية التي ساهمت في خلق فجوة كبيرة بين فئة مستغربة واخرى متمسكة او مرتبطة في الماضي ما زلنا نعانيها . والى ان يصبح التاريخ والتراث العربي جزءا حيويا من الواقع المعاصر والى ان يستعيد العربي ثقته في حضارته الثقافية عن طريق الانجاز العربي ، والى ان يستعيد الوطن ارتباطات فئاته المتعددة بحيث يكون المواطن العربي بحياته ومشاكله وامالـه محور الانتاج الفكري العربي سيبقى الوطن العربي في ازمته الحضارية التي اتينا لدراستها . وهنالك اشارات عديدة تبشر بالخير منها هذه الندوة بالذات التي سمحت لعدد من المفكرين العرب بالمناقشة الحرة .